

المرجعية الغربية وحضورها في تأسيس الخطاب الاستيمولوجي المغربي

Western reference and its presence in establishing the epistemological discourse
of the Maghreb

د. عبد الرحيم إبراهيم *

¹ جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)، abouhicham08@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/06/02 تاريخ القبول: 2025/11/28 تاريخ النشر: 2025/12/10

ملخص:

تسعى هذه الدراسة لتسليط الضوء على حضور وتأثير المرجعيات المعرفية الغربية في الخطاب المغربي من خلال تحليل السياقات التاريخية والمنهجية التي ساهمت في ظهورها، بدءاً من الصدمة الحضارية مروراً بالانفتاح على الحداثة، وصولاً إلى تحديات العولمة الراهنة، وخلص البحث إلى أن الفكر الغربي لعب دوراً محورياً في تحديث إنتاج المعرفة في المنطقة من خلال إدخال أدوات التحليل والمفاهيم المعاصرة. لكن هذا التأثير لم يكن خالياً من التعقيدات، إذ ساهم في تهميش الإنتاج الفكري المحلي وعليه تقترح الدراسة ضرورة اعتماد منهج نقدي تجاه المراجع الغربية والعمل على تأصيل البحث العلمي في السياق الثقافي المحلي.

الكلمات المفتاحية: المرجعية الغربية، الإستيمولوجيا المغربية، الانفتاح، الحداثة

Abstract: This study seeks to examine the presence and influence of Western epistemological references in Maghrebi discourse, by analyzing the historical and methodological contexts that contributed to their emergence, beginning with the shock of colonialism, through openness to modernity, and finally the challenges of current globalization. The study concludes that Western thought played a pivotal role in modernizing knowledge production in the region by introducing contemporary analytical tools and concepts. However, this influence was not without complications, as it contributed to the marginalization of local intellectual production. Accordingly, the study proposes the necessity of adopting a critical approach to Western references and working to ground scientific research in the local cultural context.

Keywords: Western reference, Maghrebi epistemology, openness, modernity

1. مقدمة:

لقد انفتحت الثقافة المغربية منذ منتصف القرن العشرين، على جملة من المدارس والتيارات الفلسفية الغربية الحديثة، من خلال تفاعلها مع فلاسفة ومفكرين أسهموا في إثراء الفكر المغربي وإعادة صياغة أسئلته المعرفية والمنهجية، وقد عرف المشهد الفلسفي المغربي بروز أسماء لامعة مثل: محمد عزيز الحبابي، طه عبد الرحمن، عبد الله العروي محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي وسالم يفوت من المغرب، ومالك بن نبي ومحمد أركون من الجزائر، وهشام جعيط من تونس وغيرهم من الأسماء التي ساهمت في ترسيخ حضور الفكر الفلسفي والإستمولوجي المغربي داخل الساحة العربية، وبلورة خطاب عقلاني نقدي متميز في بنيته ومفاهيمه ومناهجه.

هذا الانفتاح على الفكر الغربي وخاصة الفرنسي، كان بمثابة مدخل أساسي لدخول الفكر المغربي مرحلة الحداثة الفكرية، غير أنه حمل في الوقت ذاته إشكالية التبعية المعرفية التي ما تزال تلقي بظلالها على الإنتاج الإستمولوجي المغربي إلى اليوم. فقد تعددت أنماط القراءة والتأويل داخل هذا الفكر، وتنوعت تبعاً لتعدد المرجعيات الغربية التي استند إليها، سواء كانت ماركسية أو بنوية أو وضعية أو تأويلية وقد عبّر حسن حنفي عن هذه الحالة بقوله: " تحولت ساحة كبيرة من ثقافتنا المعاصرة إلى وكالات حضارية للغير امتدادا لمذاهب غربية اشتراكية، ماركسية ليبرالية، قومية، وجودية، وضعية شخصية، بنوية...حتى لم يعد أحد قادرا على أن يكون مفكرا أو عالما أو فنانا إن لم يكن له مذهب ينتسب إليه" (حسن، 1991، صفحة 20)، وهو وصف دقيق يعكس حجم الاختراق الذي مارسه المرجعيات الغربية في بنية التفكير العربي والمغربي المعاصر.

إن الخطاب الإستمولوجي المغربي يمثل في هذا السياق أحد أهم تجليات هذا التفاعل الجدلي بين التأثير والتجاوز، فهو خطاب يسعى إلى بناء معرفة علمية حول العلم ذاته، لكنه في الوقت نفسه يجد نفسه في مواجهة تحدي إنتاج خطاب إستمولوجي ذاتي

ينبع من خصوصية التجربة الفكرية المغاربية، ويتقاطع مع الفكر العربي المشرقي في أسئلته الكبرى حول العلم والعقل والحدثة، لكنه يختلف عنه في مقارباته ومصادره المعرفية.

وإذا كان الفكر المشرقي قد تميز باهتمامه بمسائل النهضة والإصلاح الديني والسياسي، فإن الفكر المغاربي اتجه نحو مقارنة أكثر إبستمولوجية، تمنح من الفلسفة العلمية الحديثة ومن مشاريع مفكرين أمثال غاستون باشلار، ميشال فوكو، وروبير بلانشي، الذين كان لهم أثر بالغ في تكوين الحس النقدي والمعرفي لدى المفكرين المغاربة. من هنا أصبحت الإبستمولوجيا بالنسبة لهؤلاء ليست مجرد تفكير في العلم، بل أداة لتحليل الخطاب ذاته وتفكيك علاقات السلطة والمعرفة الكامنة فيه.

تنطلق هذا الدراسة إذن من محاولة فهم المرجعية الغربية في تشكيل الخطاب الإبستمولوجي المغاربي، وما نتج عنها من إشكاليات تتعلق بالهوية المعرفية وبحدود الاستقلال الفكري، كما أنها تسعى للإجابة عن تساؤلات محورية أهمها:

- كيف تجلت المرجعية الغربية في تشكيل العقل الإبستمولوجي المغاربي؟

- ما أبرز المجالات والمفاهيم التي تأثرت بها؟

- إلى أي مدى أثر هذا التفاعل في استقلالية الفكر المغاربي وقدرته على إنتاج معرفة أصيلة؟

- وما السبل الممكنة لتجاوز التبعية المعرفية وإعادة بناء خطاب إبستمولوجي مغاربي متحرر من الهيمنة المرجعية الغربية؟

تنبع أهمية هذا الموضوع من كونه يتصل مباشرة بجوهر الإنتاج المعرفي والفلسفي في المغرب العربي، وي طرح بإلحاح سؤال التوازن بين الانفتاح على الكونية والحفاظ على الخصوصية الفكرية، كما يسعى هذا الموضوع إلى المساهمة في بلورة رؤية إبستمولوجية نقدية قادرة على مساءلة التراث الفلسفي المحلي، وإعادة الاعتبار للفكر المغاربي في سياق معرفي عالمي متغير.

2. أطر تشكّل المرجعية الغربية في الخطاب الاستمولوجي المغربي

إن فهم عمق تأثير المرجعية الغربية في الخطاب الاستمولوجي المغربي يتطلب استعراض الأطر التاريخية والسياسية والثقافية التي مهدت لهذا التفاعل إذ لم يكن هذا التأثير مجرد عملية تلقائية، بل هو نتيجة لتفاعل قوى وعوامل متعددة تشكلت عبر مراحل مختلفة من بينها:

1.2 الصدمة الحضارية والانفتاح عن الحداثة:

يرى المهدي المنجري أن دخول القوى الاستعمارية أحدث صدمة حضارية، وكشف عن فجوة معرفية وتقنية واضحة بين المغرب والغرب. أدت هذه الصدمة إلى شعور بالحاجة الملحة لـ "النهضة" و"التحديث"، وهي مفاهيم كانت تُصاغ في الغالب بالرجوع إلى النموذج الغربي (المنجري، 1995، صفحة 47)، حيث تمّ خلال هذه الفترة إدخال أنظمة بحثية مستوحاة من النموذج الغربي. ممّا أدى إلى بروز طبقة من المثقفين المغاربة الذين تلقوا تعليمهم في المدارس والمعاهد الغربية، أو تأثروا بالترجمة المكثفة للأعمال الغربية. إن إسهامات الفكر المغربي ارتبطت أساساً في تبني التصوّر الفكري الفرنسي سواء ما تعلّق بتيار الاستمولوجيا الفرنسي عامة و بباشلار خاصة وهذا ما نجده عند كل من الجابري وسالم يفوت وعبد السلام بن عبد العالي ووقيدي، وبالمقابل من ذلك نجد أن الخطاب المشرقي قد استلهم أفكاره من التيار الإنجليزي الأمريكي من خلال تبني وجهة نظر الوضعية المنطقية في تطبيق أبحاثهم ودراساتهم وكذا مناهجهم على الفكر العربي من أمثال زكي نجيب محمود وفؤاد زكريا وغيرهم.

وفي هذا الشأن يرى المفكر المصري "عبدالقادر ماهر" أن هناك تبايناً واختلافاً بين المرجعيات الغربية في تصورها لفلسفة العلوم والاستمولوجيا، فالفرنسيون المعاصرون يرون أن موضوع الاستمولوجيا يكمن أساساً في نقد المعرفة العلمية من خلال تحليل المناهج العلمية كنقطة بدء للوصول إلى القوانين والنظريات وكذا في تطور المناهج وما

يلحق بها، فهناك من اتجه نحو المدرسة الفرنسية مستلهما منها أفكارها ومناهجها في النقد، وهذا ما نجده في الطرح المغربي أما الاتجاه الثاني والذي أخذ منحى الاتجاه الإنجلو أمريكي معتمدا على التحليل وهو يمثل الطرح المشرقي، حيث يقول عبد القادر ماهر: "وقد انعكست كل هذه الرؤى على تيار الفكر الوضعي في العالم العربي، فالوضعية التي يأخذ بها فلاسفة العلم في المغرب العربي استمدت أصولها من لالاند الذي ورث أوجست كونت، على حين أن وضعية المشرق العربي ارتبطت أكثر بآيرو كارناب ولذا جاءت وضعية علماء المغرب نقدية على حين اتسمت وضعية علماء المشرق بالتحليلية" (ماهر، 1997، صفحة 25)، فالجابري مثلا استلهم مفهوم القطيعة من باشلار في تشكيله للمنهج الذي اتبعه عددا من الفلاسفة المعاصرين، كدراسته لابن رشد حينما قارنه بالفكر الإسلامي في المشرق واعتماده على لالاند في نقد العقل، وتأثره ببياجي في الحديث عن لاشعور معرفي، كما استلهم أيضا فوكو في الحديث عن تاريخ الأفكار (وقيدي، 1999، صفحة 60).

لقد أراد هذا الخطاب أن يكون الفكر على مقربة من أهم الأحداث والتطورات العلمية والفلسفية لبناء فكر مخصوص به يتجلى من خلاله الكشف عن دوره العلمي أو من أجل الحاجة إلى خلق مفاهيم جديدة أو إلى إعادة بعث الحياة في مفاهيم سابقة بوعي عميق يرتبط من خلاله الفكر بقضايا العصر المعاصر كما قال الجابري: "مهمة الفلسفة اليوم هي "خلق المفاهيم"، غير أن الخلق في نظر الفلسفة نفسها لا يكون من عدم وإنما يكون من شيء ما. إن الأمر يتعلق بإعادة بعث الحياة في مفاهيم سابقة أو إعادة مفاهيم سائدة بعد فحصها ونقدها وأيضا تحليل مفاهيم طارئة يقذف بها إلى ساحة الفكر السياسي الراهن " (الجابري، 1997، صفحة 113)..

2.2. تجلي المرجعية الغربية في الخطاب الإستمولوجي المغربي

تتعدد الأشكال التي تجلت بها المرجعية الغربية في الخطاب الإستمولوجي المغربي لتطال مختلف جوانب الإنتاج المعرفي، من المفاهيم والنظريات إلى المناهج وتحديد أولويات البحث.

سنحاول في هذه الجزء أن نستعرض أهم المحطات الغربية التي شكّلت أفقا معرفيا بارزا للخطاب الإستمولوجي المغربي سواء على مستوى المفاهيم أو على مستوى مناهج البحث.

1.2.2. على مستوى المفاهيم والمصطلحات:

يعدّ استيراد المفاهيم والمصطلحات الغربية أحد أبرز مظاهر تأثير الخطاب الإستمولوجي المغربي بالمرجعية الغربية، فغالبا ما يجد الباحث المغربي نفسه أمام تحدي ترجمة مفاهيم مثل "العقلانية" (Rationality)، "الحدائنة" (Modernity)، "ما بعد الحدائنة" (Postmodernity)، "الهوية" (Identity)، "الديمقراطية" (Democracy)، "المجتمع المدني" (Civil Society) .. وغيرها، والتي نشأت وتطورت في سياقات فكرية وتاريخية غربية محددة، لا تقتصر العملية هنا على مجرد نقل لغوي، بل تتعداه إلى تأويل وتكييف هذه المفاهيم بما يتناسب مع السياق الثقافي والاجتماعي المغربي، إذ يصبح الباحث مضطراً إلى إعادة بناء الدلالة المفهومية بما ينسجم مع خصوصية التجربة التاريخية المحلية دون السقوط في التبعية، ومن هذا المنطلق تحوّل استيراد المفاهيم إلى مجالٍ إشكاليّ يتراوح بين التفاعل الخلاق والتبعية الفكرية، فبعض المفكرين المغاربة رأوا في المفاهيم الغربية أدوات تحليلية ضرورية لفهم تحولات المجتمعات العربية والمغربية، بينما اعتبرها آخرون شكلاً من أشكال "الاستلاب المفهومي" الذي يعيد إنتاج المركزية الأوروبية في التفكير، وقد أثار هذا التوتر بين "الاقتباس" و"التمثل" نقاشاً إستمولوجياً عميقاً حول مشروعية استخدام المفهوم المستورد: هل هو أداة معرفية محايدة أم حاملٌ لنسق قيمي غربي يفرض تصورات معينة عن الإنسان والمجتمع والمعرفة؟

إنّ هذه الإشكالية لا تتعلق بالخطاب الفلسفي فحسب، بل تمتد إلى المناهج البحثية والكتابات الأكاديمية في مختلف الحقول، حيث تُستعار النماذج والنظريات الغربية في تحليل الظواهر المحلية من غير تفكيك الخلفيات المعرفية التي تستند إليها. وهكذا يجد

الباحث المغربي نفسه أمام مهمة مزدوجة: من جهة: الانفتاح على الفكر الكوني ومكتسبات الحداثة العلمية والفلسفية، ومن جهة أخرى ممارسة نقد إبستمولوجي لهذه المفاهيم بما يتيح إعادة إنتاجها داخل أفق ثقافي محلي قادر على استيعابها دون الذوبان في منطلقاتها الأصلية.

2.2.2. على مستوى النظريات في التبني والتكيف

شهد الخطاب الإبستمولوجي المغربي تبنيًا واسعاً لمختلف النظريات والأطر التحليلية الغربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية. ففي علم الاجتماع، نجد تأثيرات واضحة لنظريات ماكس فيبر وفي علم النفس استلهم الباحثون من سيغموند فرويد وجان بياجيه، وفي الفلسفة برزت توجهات تأثرت بالوجودية، والماركسية، والبنوية، وما بعد البنوية

1.2.2.2. التوجه البنوي:

المحطة الأخرى تمثلت في المنهج البنوي والذي كان له الأثر البارز في رسم معالم الخطاب الإبستمولوجي العربي، ف"البنوية تملك تراثا طويلا في تاريخ الفكر العلمي، ولو أن تكوينها حديث نسبيا" (بياجي، 1985، صفحة 111)، ولكنها قد فتحت آفاقا إبستمولوجية جديدة لعملية التواصل الفكري والمعرفي في الفكر الغربي وصل من خلالها الفكر إلى أقصى درجة تطوره وأحدثت منعطفًا إبستمولوجيا داخل المعرفة في توظيف مفاهيم جديدة كالبنية والنسق وفكرة التزامن وغيرها من المفاهيم، وقد اختلف الدارسون حول طبيعتها فمنهم من يراها فلسفة جديدة ومنهم من يراها طريقة في المنهج ولقد كان لها حضور متميز في ثقافتنا العربية من خلال أطروحات فكرية "اقتحمت الساحة الثقافية العربية من جهة المغرب، حيث أصبحت وما تزال مركز استقطاب لكوكبة كبيرة من المفكرين العرب المغاربة هم الأكثر تمدهم بما هم باحثون عنه حيث ينبشون فيها عما هو جديد بزاق ليقذفوه في وجه القارئ العربي، غير عابئين في أكثر من زاوية بخلفية أطروحاتهم الفكرية هذه غالبا" (محمود، 1994، صفحة 29) وقدمت نفسها

على أنها تسع العالم بكل تنوعاته وتشكيلاته وفوق كل المتفاوتات الاجتماعية وداعية للعصرنة.

لقد حاولت البنيوية تطبيق الصرامة والدقة العلمية في مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية وجعل السؤال يشكل حضوره المعرفي، وبذلك فقد انتصرت للعلم وللعقلانية وقد فتحت مجالا واسعا للبحث في الظواهر الفكرية والإنسانية.

2.2.2.2. ميشال فوكو Michel Foucault (1926 - 1984) :

من رواد البنيوية الذين أثروا في الخطاب الفلسفي الإستمولوجي العربي نجد ميشال فوكو الذي كان تأثيره واضحا من خلال كتاباته الفلسفية التي تميزت بالتنوع والتعدد والاختلاف كمفاهيم المعرفة والسلطة، والتي حظيت بقدر كبير من الحفاوة في الفكر العربي ولا تزال بصمتها حاضرة إلى اليوم وخاصة ما تعلّق بتاريخ الأفكار في مبحث الأركيولوجيا، ففوكو يقف عند الحدود بين الإستمولوجيا وتاريخ العلوم محاولة منه البحث عن الأحداث التي صنعت منذ مطلع القرن السابع عشر عقلانية الحضارة الغربية، وتقويضها لعدد من المسلمات الكلاسيكية المتوارثة خاصة منها الفكرية، ومحاولة فهم القضايا الراهنة التي نعيشها بعيدا عن خطابات الحينية للماضي، حيث ينطلق فوكو من فكرة أساسية وهي غموض النظام في تحديد إنتاج المعارف يستعصي على الأفراد إدراكه، ويتعلق الأمر بالشفرات الأساسية للثقافة التي نشارك فيها، هذه القواعد والبنىات لاشعورية وغير معروفة للعلماء في كل مجالات المعرفة، وبالتالي فهي غير صريحة من خلال عصور إبستمية متقطعة تم الانتقال من مسلك زمني إلى رؤية وهي التي تعبر عن الطريقة التقليدية في تصور تاريخ الأفكار، إذ في لحظة معينة يتشكل نظام مستقر إبيسمي يتحول بدوره إلى إبسمي آخر، هذا هو مصطلح الأركيولوجيا تفضيلا عن التاريخ عند فوكو هي نبش أشكال دفيئة وإبراز المبادئ الأساسية المنظمة لفضاء المعرفة العام

،الأركيولوجيا عند فوكو هي: "الفكر نفسه وقد عاد مجددا إلى جذور تاريخه" (ميشال، 1990، صفحة 230).

يصف فوكو ثلاث لحظات إبستمية حدثت في الغرب حيث قسمها إلى ثلاث انقطاعات وهي: إبستمية عصر النهضة الذي تقوم ثقافته على مبدأ المشابهة، إبستمية العصر الكلاسيكي الذي تقوم ثقافته على مبدأ التمثيل وإبستمية عصر الحداثة الذي تقوم ثقافته على مفهوم التاريخ والإنسان (طرايوشي، 1998، صفحة 280)

من خلال استخدامه للمنهج الأركيولوجي أراد فوكو الكشف عن الأنظمة المعرفية التي جعلها مجالا لدراسته، إذ استطاع أن يبلور منظومة فلسفية متكاملة ذات خصائص إبستمية تكشف التحولات المعرفية الموجودة في تاريخ الفكر الغربي من ثقافة كلاسيكية إلى ثقافة معاصرة، ومن خلال هذا الحفر أعلن فوكو موت الإنسان،

يصرّ فوكو على اعتماد القطائع متأثرا بغاستون باشلار، حيث يرى بأنها: "تقلب رأسا على عقب الإدراك والممارسة البشريين، وعلى هذا النحو يهيئنا لاحتمال زوال قريب لبنية المعرفة الحالية" (طرايوشي، معجم الفلاسفة، 1987، صفحة 432).

لقد كان لمفاهيم فوكو تأثير كبير لمشاريع عربية كانت قد تناولت أهم الموضوعات التي استخدمها واقتحم بها حيّزا مظلما في فتح أرشيف التاريخ الغربي، سواء على مستوى المضامين كالمعرفة والسلطة والنقد والخطاب والإبستمية والمفكر فيه واللامفكر فيه أو على مستوى المنهج مثلا لمنهج الأركيولوجي والتي استطاعت معالجة الكثير من القضايا داخل فكرنا المعاصر.

3.2.2. لوي ألتوسير Louis Althusser (1918-1990):

وإلى جانب ميشال فوكو يعتبر ألتوسير أحد أهم النقاد والفلاسفة الذين عرفتهم فرنسا في النصف الثاني من القرن العشرين، وذلك من خلال محاولاته إخضاع الماركسية لنسق المقاربة البنيوية قصد تخليصها من هيمنة الايديولوجيا.

في قراءته الجديدة لماركس أَلّف التوسير كتابين هامين، وهما "قراءة رأس المال" و"من أجل ماركس"، حيث قسّم مسار ماركس الفكري إلى مرحلتين كبيرتين: مرحلة الشباب التي كان فيها متأثرا بالفلسفة الكلاسيكية الألمانية ومرحلة الكهولة والنضج التي أحدث فيها ماركس قطيعة إبستمولوجية، ونقله معرفية مع ماضيه الايديولوجي ليشكّل مقارنة علمية تبدو واضحة في كتابه "رأس المال" حيث نجد أن التوسير عمد في نقده للماركسية على إحداث قطيعة إبستمولوجية تمثلت في فصل ماركس الشاب عن ماركس الكهل، حيث أن السعي الذي كان يهدف إليه التوسير من خلال هذه العودة هو محاولة "بعث المقال النظري للفلسفة الماركسية داخل الفكر الفرنسي من جهة، وأن يزيل ذلك الغشاء الرخو الذي أَلصقته النزعة الإنسانية بالماركسية وذلك بإعادتها إلى طابعها العلمي الصلب" (مهيب، 1991، صفحة 185).

يرى التوسير أن القراءة الحقيقية التي يمكنها أن تكشف عن ثراء رأس المال هي القراءة الفلسفية التي من خلالها يتساءل عن المكانة التي تحتلها في تاريخ المعرفة. فمفهوم «الماهية الإنسانية» كان مفهوما إيديولوجيا ينتمي إلى الحقبة المثالية عند ماركس، وقد تخلى عنه بمجرد انخراطه في مسار علمي جديد، كما نقد التوسير المفاهيم الخاطئة عند الماركسية والتي كانت تعتبر ذات نزعة إيديولوجية حيث يبرر ذلك بكون ماركس لم ينطلق من الذات أو ماهية الإنسان، وإنما انطلق من نمط الإنتاج وعلاقاته، فالفرد هو حسيلة العلاقات الاجتماعية. وليست الذات هي التي تصنع التاريخ بل الصراع الطبقي الذي يمثل شكلا من الصراع بين البنى والعلاقات الخارجة عن الإرادة الإنسانية الحرة.

إن القراءة التي قدّمها التوسير لماركس قد طرحت الكثير من المفاهيم لفتح مجال للنقد والمراجعة، والتأكيد على استقلالية موضوع المعرفة الذي كان له أثر خاص بالنسبة للمفكرين المغربي في اقتحام ميدان الإستمولوجيا، وخاصة الإستمولوجيا التاريخية النقدية التي كانت ميدانا خصبا لعدد من الأبحاث الإستمولوجية المغربية، فأعمال

لويس ألتوسير قد شكّلت في أبحاثه الإبستمولوجية وخاصة التاريخية النقدية منها محركا أساسيا لمسار البحث العلمي فجاءت أغلب الاهتمامات العربية من خلال مناقشة العلاقة بين الفلسفة والعلم ومفهوم البنية وكذا الممارسة وغيرها من الإشكاليات التي تبحث في القضايا الإبستمولوجية والتي يغلب عليها الطابع الإيديولوجي.

لقد كانت القراءات المعاصرة للتراث الماركسي التي وظّفها الفيلسوف الفرنسي لويس ألتوسير في دفاعه على الإرث الماركسي من خلال مراجعة أهم المفاهيم في استقلالية موضوع المعرفة وتوظيف مفهوم القطيعة الإبستمولوجية واستخدامه كمنهجية نقدية في فهم تطور فكر ماركس وكذا تكون المادية التاريخية، كل هذا أفضى إلى الانتقال من التفكير الإيديولوجي إلى التفكير العلمي وذلك من خلال تأسيس علم تاريخ التشكيلات المجتمعية هذا ما مكّن من الاهتمام المتزايد بالكتابات الباشلارية، حيث يرى وقيدي أنه: " بقدر ما كان ماركس يتقدم في الالتزام المجتمعي كان يسير نحو تحقيق تلك القطيعة الإبستمولوجية وهكذا فإن القطيعة النظرية قامت على أساس من قطيعة أخرى هي التي كان ماركس يحققها في مواقفه التي كانت تتقدم شيئا فشيئا نحو الالتزام بمصالح الطبقات البروليتارية" (وقيدي، العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، 1983، صفحة 123).

لقد استطاعت المدرسة الألتوسيرية أن تحتل مكانة هامة في الساحة الفكرية الفرنسية وطرحت رؤية ديناميكية تجاوزت من خلالها الطرح الماركسي الذي كان يرمي إلى القوى الاقتصادية والصراعات الطبقيّة، وبالتالي فقد أزاحت تيارات فكرية وفلسفية متميزة، غير أنه تبقى في نظروقيدي لحظة نقدية في البناء النظري والتي مازالت هي في حدود الإمكان بالنسبة إلينا.

إن ألتوسير من خلال بحثه في الماركسية أراد إلغاء النزعة الإنسانية فهي بالنسبة إليه تمثل مفهوما إيديولوجيا غير علمي، وإذا أرادت الوصول إلى العلمية فعليها أن تتطهر من المفاهيم الإيديولوجية، وعليه فإنه يمكن القول أن قراءة ألتوسير قد ساعدت المفكر المغربي محمد وقيدي كثيرا في فهم فلسفة باشلار من خلال تطبيقه لأحد مفاهيمه

الأساسية متمثلة في مفهوم القطيعة الإستمولوجية ، إذ استطاع من خلالها تحليل التطور التاريخي الفردي في مجال معرفي آخر غير الذي اشتغل عليه باشلار ، فهو يقول: "إن التطبيق الذي قام به التوسير لأحد المفاهيم الباشلارية الأساسية وهو مفهوم القطيعة الإستمولوجية كان ذا فائدة في هذا الاتجاه، فهو يبين لنا إلى أي حد يكون مثل هذا المفهوم فعالاً في تحليل تطور فكر فردي وفي فهم تاريخ مجال معرفي آخر غير الذي استمد منه باشلار" (وقيدي، فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار، 1980، صفحة 114).

كان هذا التبني مفيداً في توفير أدوات تحليلية قوية لفهم الظواهر الاجتماعية والثقافية المغربية، ولقد ساهمت نظريات التحديث في فهم التحولات التي شهدتها المجتمع المغربي كما قدمت النظريات النقدية أدوات لمساءلة السلطة والعلاقات الاجتماعية. ومع ذلك، فإن تطبيق هذه النظريات بشكل مباشر على الواقع المغربي أظهر تحديات. فبعض النظريات قد لا تتناسب مع السياق المحلي لكونها نشأت في بيئات مختلفة تماماً. هذا دفع بعض الباحثين إلى محاولة "تكييف" هذه النظريات، أو "المزاوجة" بينها وبين رؤى مستمدة من التراث المحلي

2.2.3. على مستوى مناهج البحث وتحديد الإشكاليات

لقد كان للاحتكاك المباشر بالثقافة الغربية أثراً بالغ في تشكيل المناهج البحثية والفلسفية في المغرب العربي، حيث انتقلت العديد من المفاهيم والأدوات المنهجية إلى الفكر المغربي ضمن سياق التحول من الثقافة التقليدية إلى ثقافة أكاديمية علمية حديثة. وقد تم ذلك عبر قنوات متعددة: التعليم الجامعي، الترجمة، البعثات إلى الجامعات الفرنسية، وحضور الفكر الفلسفي الغربي في البرامج الدراسية والبحثية منذ الاستقلال، وقد انعكس هذا التأثير في طبيعة الإشكاليات التي يتناولها البحث المغربي، حيث اتجه كثير من الباحثين إلى مقارنة موضوعاتهم من زاوية معرفية إستمولوجية أكثر

منها فلسفية خالصة. فأصبحت مفاهيم مثل: القطيعة الإبستمولوجية، البنية المعرفية، العائق الإبستمولوجي، الأركيولوجيا أدوات تحليلية أساسية في كثير من الأطروحات الجامعية والأبحاث المنشورة.

كما اتسع مجال استعمال المناهج النقدية الحديثة مثل البنيوية، والسيميولوجيا، والتحليل الخطابي، في دراسة الفكر العربي والإسلامي، فأصبحت هذه المناهج هي المعيار الأساسي للعلمية الموثوق بها في البحث الأكاديمي، وتمّ اعتمادها بشكل واسع في البحوث، ممّا أدى إلى إغفال مناهج بحثية قد تكون أكثر ملاءمة لدراسة بعض الظواهر في سياقها المغربي، و تتناسب مع طبيعة الثقافة التقليدية لإنتاج المعرفة، ممّا يضطر الأمر هنا إلى نقد هذه المناهج وتطوير أساليب تمكن من استيعاب خصوصيات المجتمع المغربي، و استلهاهم التراث المعرفي المحلي.

كما أن تأثير المرجعية الغربية لم يقتصر على الأدوات والمفاهيم، بل امتد تأثيرها في تحديد أولويات البحث والإشكاليات التي تُعتبر جديرة بالدراسة. كقضايا العالمية مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان، النوع الاجتماعي، التنمية المستدامة، وهي قضايا مهمة بلا شك، ولكن قد لا تتناسب مع الأولويات الملحة للواقع المغربي.

في حين يتم تهميش قضايا محلية ذات أهمية قصوى للسياق المغربي، مثل أنماط التفكير المحلية، أو التراث الشفوي، أو التحديات التنموية المرتبطة بالواقع الفلاحي أو القروي، وهذا لا يعني التخلي عن القضايا الكونية كما نظر إليه العروي، بل يعني ضرورة إيجاد توازن يسمح للخطاب الإبستمولوجي المغربي بأن يكون جزءاً من النقاش العالمي.

هكذا يمكن القول إن المرجعية الغربية أسهمت في تحديث المناهج البحثية المغربية وأتاحت للفكر المحلي أدوات تحليل دقيقة، غير أن حضورها المكثف أفرز في المقابل تحديات تتعلق بالاستقلال المعرفي وبناء منهج متوازن، ومن ثمّ فإن الرّهان اليوم لا يكمن في الانغلاق على الذات أو القطيعة مع الغرب، بل في تحقيق تملّك نقدي للمرجعية الغربية.

3. تجاوز التبعية المعرفية وإعادة الاعتبار

يتطلب تجاوز التبعية المعرفية وإعادة الاعتبار للتراث الفكري المغربي والعربي بناء جسور بين الأصالة والمعاصرة، وبين المرجعيات المحلية والعالمية التي يمكن استثمارها في فهم الواقع المعاصر، ولا يعني الانغلاق على الذات، وبالتالي بناء خطاب إستمولوجي مغربي أكثر استقلالية وأصالة من خلال:

- التعامل مع المرجعية الغربية بروح نقدية لا بالتقديس المطلق، أي من خلال مساءلة المفاهيم والنظريات الغربية، وفحص مدى قابليتها للتطبيق في السياق المغربي.
- صياغة أسئلة بحثية عن مفاهيم ونظريات قادرة على تفسير الواقع بشكل دقيق سواء كانت مستمدة من التراث المحلي أو من تفاعل خلاق مع النظريات العالمية.
- إعادة قراءة التراث الفكري قراءة نقدية لإبراز المفاهيم التي تُسهم في بناء إستمولوجيا أصيلة.

- تكييف المناهج الموجودة لتتناسب مع خصوصيات المجتمع المغربي مع مراعاة الأبعاد الثقافية واللغوية والاجتماعية الفريدة.
- بناء إستمولوجيا أصيلة تنفتح عن مختلف التخصصات (العلوم الإنسانية والاجتماعية، والعلوم الطبيعية، والعلوم الشرعية) للوصول إلى فهم شمولي ومعمق للواقع المغربي.

لكن هذا الانفتاح المنهجي، وإن كان قد أضفى عمقا معرفيا على الدراسات المغربية، إلا أنه أدى في الوقت ذاته إلى نوع من الارتهاق المرجعي، حيث أصبحت المناهج الغربية تُستورد أحيانا دون تكييف مع السياق المحلي، مما نتج عنه خلل في توطين المفاهيم داخل البنية الفكرية المغربية. فبدل أن تُوظف هذه المناهج كأدوات لقراءة الواقع المغربي، غدت في كثير من الأحيان نظما مغلقة يقاس بها الواقع ذاته، مما خلق فجوة بين الإطار النظري المستورد والموضوع الثقافي المحلي.

وقد انتبه عدد من المفكرين المغاربة إلى هذه الإشكالية، فدعا بعضهم إلى تأصيل المنهج دون رفضه أي إلى تملك أدوات التفكير الحديثة ضمن رؤية نقدية تحافظ على الذاتية الفكرية، كما دعا إليه طه عبد الرحمن من خلال إعادة بناء المنهج من الداخل عبر ما سماه بـ العقل المؤيد الذي يوازن بين المرجعية الكونية والخصوصية القيمية، في حين حاول عبد الله العروي توظيف المنهج التاريخي المادي في قراءة التراث العربي ضمن مشروع نقدي يهدف إلى تجاوز التقليد والقطيعة مع الوعي الأسطوري، أما محمد سبيلا و عبد السلام بنعبد العالي، فقد اشتغلا على المناهج الغربية ذاتها لكن بروح نقدية، مسلطين الضوء على التحولات التي عرفت الإستمولوجيا المعاصرة من داخل الفكر الغربي.

4 . خاتمة:

لقد شكّلت المرجعية الغربية عاملاً أساسياً في تشكيل الخطاب الإستمولوجي المغربي و قدمت إسهامات كبيرة في تحديث العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال تقديم مفاهيم ونظريات، ومناهج ساهمت في فهم جوانب متعددة من الواقع المغربي، غير أن هذا لم يستبعد بعض التحديات والإشكاليات العميقة، أبرزها الانحصار المعرفي وتهميش الإنتاج الفكري المحلي، مما أثر في استقلالية الفكر المغربي وقدرته على الإبداع.

وبالتالي فإن بناء خطاب إستمولوجي مغربي أصيل يواكب تحديات العصر يتطلب مقارنة نقدية واعية للمرجعية الغربية التي لا تعني الانغلاق أو الرفض المطلق، بل دعوة إلى التفاعل والمساءلة المستمرة للمفاهيم والنظريات المستوردة وتكييفها مع السياق المحلي، وعليه فإن هذا المسعى يستوجب إعادة الاعتبار للتراث الفكري المغربي والعربي كمصدر حي للمفاهيم والأطر التي يمكن أن تلهم بناء نظريات أصيلة لفهم واقعنا المعاصر. إن المزاوجة بين المرجعية المحلية والعالمية هي السبيل الوحيد لبناء إستمولوجيا مغربية قوية ومتجذرة قادرة على إنتاج معرفة ذات قيمة عالمية ومحلية في آن

واحد، مساهمة في بناء مستقبل معرفي متحرر ومبدع

5. قائمة المراجع:

- ابراهيم محمود. (1994). *البنوية وتجلياتها في الفكر العربي المعاصر*. سوريا: دار الينابيع للنشر والتوزيع .
- المهدي المنجری. (1995). *الحرب الحضارية الأولى* (المجلد 1). مصر: مكتبة الشروق.
- جان بياجي. (1985). *البنوية* (المجلد 4). (عارف منيمنة، المترجمون) بيروت: منشورات عويدات .
- جورج طراييشي. (1987). *معجم الفلاسفة* (المجلد 1). بيروت: دار الطليعة.
- جورج طراييشي. (1998). *نقد نقد العقل العربي ، إشكالية العقل العربي* (المجلد 1). بيروت: دار الساقى .
- حنفي حسن. (1991). *مقدمة في علم الاستغراب*. مصر: الدار الفنية.
- سالم يفوت. (1989). *بين النقد والحقيقة* (المجلد 2). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- عبدالقادر ماهر. (1997). *فلسفة العلوم/قراءة عربية* (المجلد 1). بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- عمر مهيبل. (1991). *البنوية في الفكر الفلسفي المعاصر*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية .
- فوكو ميشال. (1990). *الكلمات والأشياء*. (مطاع صفدي، و اخرون، المترجمون) بيروت: مركز الإنماء القومي.
- محمد عابد الجابري. (1997). *قضايا في الفكر المعاصر* (المجلد 1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- محمد وقيدي. (1983). *العلوم الإنسانية والإيديولوجيا* (المجلد 1). بيروت: دار الطليعة.
- محمد وقيدي. (1999). *جراًء الموقف الفلسفي*. المغرب: افريقيا الشرق.
- محمد وقيدي. (1980). *فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار* (المجلد 1). بيروت: دار الطليعة.